حمـــــاري وأنـا

• عبد الستار ناصر*

هكذا، وبدون تردُّد، سحبتُ سيجارة، ورحتُ أدخِّنها في ممرّات وزارة النفط، برغم التحذيرات المبثوثة في كلّ شبر من ذلك الرواق المترف: «ممنوع التدخين!»

كنت أعرف أنّه ممنوع طبعًا. لكنْ هكذا، ودون مبالاة، قرّرتُ أن أعترض على كل قرار.. ربما رغبةً في تعويض أيّام الذلّ، في الحرب مرةً، وفي المعتقلات مرةً، وفي البيت والبلاد معًا.

تركتُ حماري الجميل يمشي كما يشاء، ورأسي كما يريد. انغمستُ في لجّة ذاكرةٍ عمرُها يوازي سنواتي. تتموّج ملامحُ الجلّاد، تطوف حولي، وحماري أجبروه على الصمت. أعرفُ أنّ بقائي حيّاً محضُ أكذوبة من نسج الشيطان، وأنّ أعوامي مضَتْ وانتهَتْ يوم خروجي من ذاك السرداب ـ تحت الأرض بمسافة أعمق من طابقَيْن ـ وأنّ الداء الذي غرسوه في دمي لا دواءَ له. أعرف أنّني سأموتُ فجأة، ربما في حالة نشوةٍ عابرة أو بَعْد كأسٍ من النبيذ، أو في حضرة امرأةٍ تقول «أحبكَ» سهوًا، أو عند صعودي سلالمَ الوزارة.

المتاهة هي أن تكون في بيتك ولا تَدْري كيف الخروج منه، بينما الرعب الأول يَكْمن في أنّك سوف تخاف حتى الأصدقاءَ والزوجةَ والأبناءَ ويكون الطَّرْقُ على الباب ـ عند أوّل الليل ـ أخطرَ من زيادة نبض القلب.

سحبتُ دخان سيجارتي بقوّة: أَنْفث السياطَ التي رسموها فوق جلدي، أَنْفث الرصاصَ الذي انهمر على مئات المساكين في الشمال والجنوب، وحماري الجميل ينفث الدخانَ معي. أخاف الزمان إذا أسرع خلفي أو حين يسابقني نحو دائي. ليس من ذاكرةٍ للجيوش حين تحارب؛ فهي حتى إذا أصابت النصرَ ـ سهوًا ـ ماتت في حرب أُخرى. كل شيء طيِّب ونظيف هَجَرَ المسلخ الكبير وراح يَبْحث عن عشّ يؤويه. أوطان من لحم وأرض ودم تسافر في قطار المحنة، والمحنة تَرْفض أن تسافر عنا.

رآني السيِّد الوزير وأنا أدخِّن تحت «ممنوع التدخين.» كان في زيارة تفتيش يوميّة بغيةَ العثور على موظَّفة حلوة لم تَدْخل غرفتَه بعدُ. ابتسم الوزير بطراوة وحكمة، وفي اليوم التالي جاء القرار بنَقْلي إلى «محطة تعبئة السلام.» بقيتُ الليلة الأولى وأنا أُحصي كميةَ ما نبيع من وقود في محطّة واحدة، فاكتشفتُ يومها أنَّ الحكومة تَسْرق الشعب في اللَّيل كما في النهار، وأنّ حماري وحده مَنْ وَصَلَ ضفاف اليقين وكفّ عن حمولة ما يرغبون.

حماري الجميل تَرَكَ الوظيفةَ قبلي، وأشعرني بالعار. فقلتُ كما قال، وأهملتُ «محطة السلام» لمن يَفْهم كيف تكون اللُّعبة أفضل. العائلة تَسْخر مني: «يا لك من مغفَّل، مغفَّل أصيل، مَنْ يَشْتغل في مكان كهذا يُمْكنه أن يَبْني عمارة في عامين!»

لكنّني تركتُ العمارة لمهندسٍ أَذْكى مني، ورحتُ أبيع السجائر في «الأعظميّة» لئلا يراني مَنْ يسكن في «صبابيغ الآل» حيث كان بيتي. وفي آخر اللَّيْل أيْقَنْتُ أنّ ربح السجائر طار من بين أسناني وأنا أُحرق السجائر بالمفرد والجنون. حماري يَنْهق على مقربة من صندوق سجائري، يَضْحك مني ويَكْتفي بالصبر وانتظار وجبة المساء.

جاءني رجلٌ من «سراديب الموت» كان يعذِّبني قبل أن يَكْتشفوا الشبهَ بين اسمي واسمِ مناضلٍ تَمَكَّن أن يَهْرب منهم. تسعة شهور من الذبح والمهانة وأنا أَدْفع حصّةَ غيري من كسر العظام وقلع الأظافر والطيران تحت سقف الصراخ والنهش وإذابة الضمير. والمناضل الذي يريدون ولّى وجهَه شطر بلد آخر، وكان يَضْحك من بلاهتهم. فما كان عليَّ غيرُ العثور على بديل يُرضي خواطرَ السادة في ذاك القبو الأزرق. قال هذا السيِّدُ الجلاّدُ (عفوًا، لا بدّ من صفة السيِّد هنا، من يَدْري، قد يَعْثر يومًا على مذكراتي، فيأخذني إلى هناك ثانيةً ويَفْعل ما يشاء بي، ولاسيَّما أنّ هذه الأوراق خير دليل على إدانتي!)

---

* ـ قصّاص وروائيّ عراقيّ، يقيم الآن في عمّان. له ١٣ مجموعة قصصيّة و٤ روايات.

• عبد الستار ناصر

ـ نريدك أن تَعْمل معنا، ألا تَسْتحي من بيع السجائر بالمفرد؟

كنتُ أصغي لنواح روحي وقلبي معًا، خائفًا من جوابي قبل أن أَنْطق به. وحماري الجميل راح عني وابتعد، حتى إنَّني لا أدري كم مرّ من الوقت بعد ذلك السؤال وأنا أبحث عن رأسي حقّاً. أتهيّأ للجواب. أسمع السيِّد الجلاّد يكرِّر:

ـ ماذا دهاك؟ ألا تَسْمع ما أقول؟

قلتُ له وأنا أُمسك صندوقَ سجائري بقوّة:

ـ أَعْمل معكم؟ ماذا أَعْمل أنا معكم؟

لا أدري هل أمطرت السماءُ، أم أنَّه عافني ـ حقّاً ـ وراح عني؟ لا أُصدِّق ذلك: كلاهما راح وعافني وحدي (حماري الجميل والجلاّد معًا). لا بدّ أنَّ السماء أمطرتْ، وأنَّ اللّهَ أراد النجاة لي ـ هكذا ـ في لمحة عين!

في مدرسة الطفولة، علَّموني أنَّ المعلّم كاد أن يكون رسولاً، قبل أن أراه بنفسي يبيع السجائر على قارعة «الكاظميَّة» لئلا يراه تلاميذُ «باب الشيخ» حيث عشتُ أيام أول مدرسة دخلتُ إليها.

أَشْعر أنَّني خرجتُ الآن من قبر عميق جداً. يلفّني كفني، ثمَّ أراه وقد تمزَّق حولي قطعةً إثر قطعة؛ تهرّأ تمامًا، وبقيتُ تحت السماء وحيدًا، عاريًا، لا يَسْترني غيرُ طوق نجاتي وحماري والمطر.

لعلّ أكثرَ ما يَحْتاجه الغبيُّ الأبلهُ هو أن يُقال عنه ـ مرةً واحدة طوال حياته ـ كم كان ذكيّاً في موقفٍ ما. وحماري الجميل لم يَكُنْ غبيّاً ولم يَنْتظر مدحَ أحد (من الناس)، بل ترك الحمولةَ والعشبَ، ولم يَذْهب إلى الحرب ليَحْمل الرصاص والقنابل والصواريخ على ظهره القويّ. عاف البلاد واختفى في مزرعة مخصَّصة للحمير التي توشك أن تموت.

علَّمني الحمار كيف أختار طريقي في شعاب المجزرة التي فرضوها على جسدي. قلتُ لنفسي: «لا يُمْكن أن يكون الحمار أفضل من عقلي.» وقررتُ يومها أن أفعل بعضَ ما يَمْليه ضميري على ما تبقى من حياتي، وأنا أَحْمل الداء الذي لا دواء له.

معلِّم اللُّغة العربيَّة، الذي يبيع السجائر، قال لي: «إنَّ ما جرى في هذه البلاد من ويلات وقتلٍ تَسْقط من أجله عشراتُ الحكومات. ولهذا سأقول إنَّ اللّه تَرَكَ البلادَ لمصيرها الرهيب مادامت تُمعن في النوم طوال يومها.»

جاءني السيِّدُ الجلاّد ثانيةً، لكنَّه لم يَنْطق بحرف. نظر إلى ثيابي ومشاعري بطريقة تفتيشيَّة تَحْوي شيئًا من السفالة والإسفاف والسفه، ثم عافني وهو مطمئنٌّ إلى أنَّ حماري لم يَعُد معي. رحتُ أبيع السجائر وأنا ألتفتُ شمالاً، شمالاً وشرقًا، عساني أَكْسر شكل المكان المربَّع الذي بقيتُ فيه وحدي دون جلاّد محترم ودون حمار جميل.

عيني على حال البلد من دون حمار كحماري الجميل؛ إنَّه محض خرابة لا يُمْكن البقاء فيها. لا بدّ من حمار يَحْمل أثقالهم ويخفِّف العبء عنهم. لكنَّ الحمير ـ بعد مئات الأعوام من الذلّ والإذعان والمهانة والضرب ـ صارت أقلّ صبرًا. وحده المواطن (الشريف العاقل السويّ) مَنْ صار بديلاً عن الحمير، بعد أن صار القرارُ يَحْكم علينا بمَنْع الزيارات الخاصة، لاسيَّما بين عوائل «الشواكة» و«حافظ القاضي» و«سوق حمادة،» وجاء القرار التالي بالقتل لمَنْ يَنْتسب إلى فئةٍ ما أو إلى جماعة تَفْهم القراءةَ والحسابَ والعلوم. لكنَّ السعادة غمرتنا بقوّةٍ يومَ سمعنا بالقرار الثالث، أَعْني القرارَ الذهبيّ الذي يقول بالحرف: «كلّ مَنْ يَعْمل عملَ الحمير له أجرُه مرتين مع مَكْرمة تستمرّ طوال السنين.»

قال معلّم العربيَّة ـ سابقًا ـ وبائعُ السجائر بالمفرد ـ حاليّاً ـ إنَّ الوطن كلمة تَحْتاج إلى تفسير، وإنَّ التأريخ لعبة خطيرة جداً. قال إنَّ التأريخ يُشْبه كتابة الشعر أحيانًا: يموت الشاعر وتَبْقى القصيدة. لهذا صار عليهم إعادةُ كتابته بالمقلوب حتى يَبْقى «السياسيّ» المحنَّك ويموت التأريخ.

بعد القرار الذهبيّ الثالث، صار النجّار الشاطر والمهندس المعماريّ، وحتى معلّمُ التلاميذ وباعةُ الجبن، يَعْملون كما الحمير، عشرَ ساعات في اليوم الواحد من أجل طعامٍ أكثر في النهار وأمانٍ أكيدٍ في اللّيل. أمّا باعة السجائر والمدلّكون والبقّالون وأصحابُ العربات الخشبيّة، فما عاد أحدٌ منهم يلتفت إلى شتائم الناس لهم بعد أن عملوا في خدمة الشرطة «الوطنيّة» أكثر من عشر ساعات وفاءً لدولةٍ قويّةٍ عنيدةٍ تمكنتْ من تعويض الحمير في أقلّ من الوقت المرسوم لها.

ضاع حماري الجميل ولم أعْثر عليه مطلقًا. أخبرني خبّاز المحلّة أنّه رآه في أربيل يَسْرح ويَمْرح مع البغال، بينما قال مؤذّن «صبابيغ الآل» إنّه عرفه من الوشم المختوم على مؤخرته يوم رآه في سوق «مريدي» يَبْحث عن شيء لا يُباع في الأسواق. أمّا مختار محلّتنا فقد صرخ في وجهي:

- مِنْ قلّةِ الحمير تَبْحث عن حمارك يا هذا؟! عليكَ أن تَخْجل من نفسك. صار عمرك فوق الخمسين، وأنتَ تَبْحث عن حمار. يا لك من حمار!

بعد كلام المختار، انزويتُ في بيتي، وبكيتُ حماري الجميل، ونفسي، واكتفيتُ - يومًا بعد آخر - بقراءة الجرائد والجلوس أمام التلفزيون. اعتقلوا أحدَ الشعراء، ثم سمعنا - فورًا - بإعدامه تحت «نصب الحريّة» بعد أن كتب قصيدةً قال فيها:

«هنيئًا لكم البستان الأخضر

يا حمير الحكومة!»

وجاء الصدى من كل مكان: «هنيئًا، يا حمير الحكومة.» فصار القتلُ بالجملة، بعد أن كثر الشعراء. تزداد حشودُ الحمير أمام أبواب الدولة وقصور الشعب، ويَخْبو صوتُ الشعراء، حتى لم يَبْقَ في طول البلاد وامتدادها - بعد ثلاثين سنة - شاعرٌ شريفٌ واحد.

صارت الشوارعُ الخلفيّة والزوايا والممرّات وبيوتُ الحكمة وميادينُ الاحتفالات ومسارحُ البلاد ودورُ السينما والمقاهي والبارات وأكشاكُ العصير ووزاراتُ الريّ والثقافة والعلوم محضَ إسطبلات لا يُسمع فيها غيرُ النهيق المبرمج، ببطء أولاً، ثم بصوتٍ واحد لا يَسْكت إلاّ بأوامر عليا. ومَنِ اعتَرَضَ على حكومة الحمير - أعْني حميرَ الحكومة عفوًا - لم يَكُن أمامَه غيرُ الهجرة أو قتل نفسه بسمّ الفئران. حتى إنّ الدولة نفسها أعطَت السماحَ القانونيّ للصيدليات ببيع أنواع السموم كلّها، خشية الرفض الذي حلّ في صباح يوم عجيب، عندما اشتعلتْ نيرانُ الغضب في «السماوة» و«البصرة» و«كربلاء» ثم خبت تلك النيرانُ بعد تسعة أيام، إذ تبرّع حميرُ الحكومة بالهجوم على معسكرات الرافضين، وصار كلُّ حمار منهم مسؤولاً عن فرد من المتمرّدين!

ولما كان عددُ الحمير - بمرور الوقت وكثرة المكارم والهبات وشدّةِ سياط التهديد - ضعفَ نسبة المواطنين، فقد انتصرتْ دولةُ الحمير وعادت إلى عرشها وهي أكثر حقدًا وقسوة. بل إنّ الشعراء في المهجر الشاسع البعيد هَجَروا الشعرَ وبيتَ القصيد الذي ما تمكّن أن يَحْمي أو يُنْقذ أيّ شيء طوال مئات السنين!

ويوم كفّ الشعراءُ عن الشعر، كما كفّ المواطنُ عن الاعتراض، ويوم صارت الخمرةُ هي الدواء الوحيد، جاءني السيّدُ الجلاّد، وقال بعنف، وهو يهزّني من كتفي:

- إسمعْ أيُّها الكلب، عليك أن تأتي معي، حالاً، وتَعْمل معنا فورًا.

نظرتُ إليه بذعرٍ حقيقيّ. رأيتُ أنّ أعناقنا صارت تتكسّر تحت سياط جلاّد لا نراه. الحياة برمّتها صارت تتكسّر دون أن يَضْربنا أحد. لقد تمكنوا أخيرًا من فرض أوهامنا علينا، وباتت هي الحارسَ البديلَ عن معتقلاتهم ومعسكراتهم ومنازلِ التعذيب التقليديّة لديهم. بمرور الزمن صارت البلاد كلُّها تَنْهق بهدوء وَتَهْتف بهدوء وتَبْكي نفسَها ومصيرَها بهدوء. ولم نَعُد نَسْمع أو نرى غير ذيلٍ يتحرّك وراء كلّ واحد منّا.

راح الجلاّد يكرّر:

- حالاً، أيُّها الكلب، فورًا تأتي، وتَعْمل معنا.

• عبد الستار ناصر

سمعتُ في الوقت نفسه هتافات وتصفيقًا ونهيقًا. كان الحوذيُّ الأكبر الذي يَعْتني بحمير الحكومة يَخْطب في جمهرة من الرؤوس، ويُمْسك بعصًا فضيّة وهو يقول:

ـ أنا مولع بأخطائي. لكنَّها برغم ذلك تبقى مقدَّسة. ومن يَحْترم عنايتي به سيَحْترم قدسيتي عليه، وبالتالي فهو يحترم أخطائي. أليس كذلك أيُّها الإخوة النبلاء؟

هل نصفِّق لكلام كهذا مثلاً؟ إذا بالجماهير تصفِّق وتَهْتف بحياة الحوذيّ العظيم ثم تعود إلى بيوتها حزينةً لِمَا فعلتْ. أنا وحدي مَنْ بقي في الميدان الكبير. يَلْتصق وجهُ الجلاّد بملامح الحوذيّ الشهير، فلا أدري مَنْ منهما راح يصرخ بي:

ـ لماذا تَرْفض أن تَسْمعني أيُّها الحمار؟ قلتُ عليكَ أن تأتي معي، حالاً. قرَّرنا أن تَعْمل معنا. هل تَفْهم؟!

هكذا، وبدون أن أَسْمعه جيِّدًا، سحبتُ سيجارةً، رحتُ أدخِّنها وأنفُث دخانها فوق ملامح الجلاّد، برغم أنَّني أدري أنَّ التدخين ممنوع في حضرة هذا النوع من البشر. وكنتُ أعرف أنَّه ممنوع طبعًا، لكنْ، هكذا، ودون مبالاة، قرَّرتُ أن أَعْترض كما فعل «الحلويين» من الشهداء في «السماوة» و«البصرة» و«كربلاء». وهذه المرَّة كان القرار: أن أَهْرب من بين يدي السيِّد الجلاّد وأمضي بسرعة وأنا أصرخ ملء حنجرتي:

«هنيئًا لكم البستان الأخضر

يا حمير الحكومة.»

أَصْرُخ كما الأطفال. ربَّما كنتُ أبكي وأنا أصرخ مثل بقيَّة الصغار. أَهْرب من حرب لا تناسب طيبتي، من معتقلاتٍ لا يتَّسع لها عقلي. أَهْرب من بيت لا يَعْرف كيف يأويني، ومن بلادٍ تطارد أولادها حتى في الأحلام. أَصْرُخ ملء حنجرتي وأنا أتذكَّر قول صديقي «زكريا» وهو يَضْحك:

ـ سيأتي الطوفانُ، ولن يَنْجو منه إلاَّ النذلُ والوغدُ والخسيس.

حلَّ الطوفانُ بنا فعلاً، وما عاد من أحد غيرُ الجلاّد وذاك الحوذيّ المُولع بالأخطاء. شبعنا من خسّة الخسيس ومن نذالة النذل. حقّاً يا زكريا، سنضحك ذات عشاء. لكنَّني الآن أهرب شبقًا، باكيًا، مطموسًا بين الحنين والخوف، بينما الجلاَّدُ يركض خلفي. أعتقد أنَّ المئات من الحمير، بأمر الحوذيّ الكبير، كانوا يسابقونه وهم ينهقون ورائي.

لا أدري ساعتها، وأنا أسابق الرياحَ والروحَ، كيف ألتصق النهيقُ بأزيز الرصاص. لا علم لي بما جرى خلف ظهري... سوى أنَّني تمنَّيتُ البكاء على رمال النجف الأشرف.

عمَّان